القرآن واللغة والأدب والنقد ، وإنما سارت في مواكب هذه العلوم وترعرعت في أكنافها ، وكانت موضوعاً مشتركاً بين الدراسات القرآنية واللغوية والأدبية والنقدية . كانت البلاغة موضوعاً تناوله مَن بحث في إعجاز القرآن وبيان أسراره ، ومن بحث في أساليب العربية وطرق أدائها ، ومن بحث في البيان العربي وصفاته ، ومن بحث في المفاضلة بين طبقات الكلام وتمييز جيّده من رديئه . وكانت كل طائفة من أولئك العلماء تتناول البلاغة من الجانب الذي يعنيها ، وبالقدر الذي يحقق غايتها ، وعلى جهودهم جميعاً قامت علوم البلاغة بفنونها وأنواعها .

على أن البلاغة التي وضعوها لم تصل إلى أيدينا إلا بعد أن علق بها الكثير من آثار الفلسفة والمنطق ، وابتعدت عن اللغة الحيّة ونصوصها الأدبية ، وأُفرغت في تعريفات وقوالب جامدة ، ولم تعد كما كانت بنت الذوق السليم ونفحة الحسّ المرهف بالجمال . ولذلك فلم يعد بي بحاجتنا اليوم أن نعود إلى كتب البلاغة نوضّحها ، أو نعيد تأليفها على منهج آخر ، وإنما يجب أن نعيد النظر في مفهوم البلاغة ، وأن نخلّصها مما علق بها ، ثم أن نوضّح وظيفتها ونجعلها أوسع وأشمل .